الفصل الثالث

أسطورة البطل

تبين مما سبق أن المراهقة ليست ضرباً من التغير السحرى الذى يتحول به الفتى أو الفتاة ، كما تتحول الضفدعة فى قصص الأطفال الخرافية إلى أمير ؛ وإنما هى قبل كل شىء مرحلة تغير تدريجى وئيد ، ولكنه مع ذلك تغير يبدل الفتى رجلا ، والفتاة امرأة .

فعلينا إذن ، لو شئنا أن نفهم المعنى الحقيقى للمراهقة ، أن نعرف طبيعة هذا التغير ، وطبيعة المادة التى تنصب عليها عمليته . وسنصادف أثناء بحث ذلك كثيراً من النقط التى ظلت محوراً للجدل وقتاً طويلا ، ومسائل شتى ذات أهمية نسبية تتصل بالطبيعة والتنمية ، و بالوراثة والبيئة ، وما أشبه ذلك . كما أننا سنناقش بعض المصطلحات التى فقدت كثيراً من دلالاتها بسبب التوسع فى استخدامها .

إن عملية التغير فى المراهقة تنصب ، لا على أمر معنوى أو حلم خيالى ، بل على مخلوق حقيقى ، هو الفتى أو الفتاة . فالكائن الذى تتبدل حياته ، ونظرته إلى الحياة بتأثير النضج التدريجى الذى يصيب أعضاء التناسل

والنزعات الجنسية ، و بتأثير الظواهر الجسمية المفاجئة التي تصحب اكتمال النضج إنما هو كائن حي يعتمد على خبرات حيوية استمدها وتأثر بها في غضون أحد عشر ، أو اثنى عشر ، أو ثلاثة عشر عاماً من حياته ، وله قدرات جسمية نامية يقع عليها ضغط التغير ، كما أن له نظرات إلى الحياة لابد من أن تتطور وفق هذا التغير من ناحية ، كما لابد للتغير نفسه أن يتأثر بها من ناحية أخرى .

و ينبغي أن ندرك قبل كل شيء أن الأمور الجنسية ذاتها ليست من الخبرات الجديدة على فتى ، أو فتاة ، في سن الثانية عشرة ، فإن الغريزة الجنسية موجودة منذ الولادة ، وهي نفس الغريزة التي ندرك نشاطها أثناء المراهقة ، و إن اختلفت مظاهرها في هذه المرحلة من حياة الفرد ، إذ نجد أولا أن النزعات الجنسية لا تتجه نحو الإشباع الحقيقي ، إلا عند المراهقة . كذلك نجد في خدمتها منذ بدء النضج الجنسي أعضاء جسمية قادرة على القيام بالوظيفة الجنسية . أما قبل ذلك فقد كان السلوك الجنسي منصباً على أشياء أخرى ، وكان يظهر في صور مختلفة أشد الاختلاف .

قد تبدو هذه النظرة إلى الجنس لأول وهلة بعيدة عن المعقول ، ولكن بعض الفهم للمشكلة الحقيقية خليق أن يجعل ذلك أمراً لامفر منه . إذ ما الغاية من التزاوج ؟ ومن السلوك الجنسي بوجه عام ؟

إن أول جواب طبيعي يتبادر إلى الذهن أن التزاوج يؤدي إلى إنسال الأطفال . صحيح أن هذه هي الغاية البيولوجية من التزاوج ، ولكن

كثيراً من الأقوام البدائية لا يكادون يدركون هـذه الغاية ، فقد وجد علماء الإنسانيات منذ زمن طويل أن سكان أستراليا الأصليين لا يدركون إطلاقاً أن للعملية الجنسية علاقة بولادة الأطفال إذ كانوا يعتقدون أن النساء تثمر الأطفال ، كما تثمر بعض أشجار النخيل جوز الهند ، وكما أن بعض النخيل تحمل الثمار ، وبعضها لا تحمل شيئاً ، كذلك النساء يلد بعضهن أطفالا ، ولا تلد الأخريات . وتنجب النسـاء الأطفال لأن الأرواح قد وضعتهم فى أرحامهن ، أما التزاوج فلا دخل له فى ذلك .

وإذا كانت تلك هى معتقدات القوم ، فلماذا إذن كان الرجال يتزوجون النساء ؟ الجواب البسيط عن ذلك أن الاتصال الجنسى فى ذاته يفضى إلى اللذة التى يحسها الطرفان أثناء ممارسة العملية الجنسية . وقد ذكر أحد علماء الاجتماع الشرقيين ، فى كتاب له نشر حديثاً ، أن ارتفاع نسبة المواليد بين طبقة الفلاحين والعوام فى البلاد العربية يرجع إلى أن حالة الفقر والظروف البدائية التي يعيش فيها أفراد هـذه الطبقة لا تجعل فى متناولهم سوى هـذه الوسيلة ، وهى الزواج ، للحصول على اللذة رخيصة سهلة .

والعنصر الجوهرى فى هذه اللذة هو استثارة منطقة محدودة من الجسم هى مناطق الشهوة التناسلية (أى أجزاء الجسم التى تستطيع إذا أثيرت ، أن تحدث لذة « شبقية » نوعية) ، وهى تشمل عادة الأجزاء التى يحدث عندها اتصال الأغشية الداخلية بالغلاف الجلدى الخارجى ، ولذلك تكثر

فيها أطراف الأعصاب ، وتوجد عند حافة جميع فتحات الجسم مثل الفم ، والخياشيم ، والعينين ، والشرج ، والفتحات البولية ، وتلك جميعاً مناطق أشد حساسية من سائر سطح الجسم .

وليس ثمة شك فى أن الوليد يحصل أثناء الرضاعة على نوعين مختلفين من اللذة ، أحدهما إشباع الجوع ، والثانى ينجم عن استثارة حلمة ثدى الأم لشفتيه . واللذه التى من النوع الثانى هى التى يحصل عليها الطفل من مص إبهامه ، أو حلمة المطاط ، عند ما لا يكون جائعاً . كذلك تشعر الأم بلذة فى إرضاع وليدها بسبب إثارة شفتيه لحلمة ثديها . فهذه اللذة المتبادلة ، وكذلك اعتماد الطفل والأم كل منهما على الآخر ، فى الاستمتاع بها ، تعتبر عاملا هاماً (ولكنه ليس العامل الوحيد) يؤثر فى تعلق الطفل الرضيع والأم المرضع كل منهما بالآخر تعلقاً شديداً .

ويظهر هذا التعلق الشديد فى صور مختلفة ، منها نوبات الانفعال التى تصيب الطفل عند محاولة فطامه ، ومنها أيضاً ما يبدو عليه من مظاهر الاستياء عند ما يهم أبوه بتقبيل أمه ، أو مداعبتها ، على مرأى منه ، فإن كثيراً من صغار الأطفال يحاولون فى مثل هذه الحالات أن يدفعوا الأب بعيداً عن الأم ، أو تندو عنهم صرخات الغضب . كل هذه أمثلة مألوفة لنا جميعاً ، ودلالتها واضحة للمراقب الذى يعمل فكره فيما يقع تحت بصره .

فمن الجلى أن الطفل يريد أمه لنفسه فقط ، ولا يحتمل وجود منافس له فيها ، وهذا هو ما يعنيه بسلوكه ، وإن لم يستطع التفكير فيه أو التعبير

عنه بالألفاظ . وهو لا يدرك الأهمية البيولوجية لما يتطلبه من أمه ، كما أنه لا يستطيع أن يستخدم القوة فى تحقيق مطالبه ، بل إن كل ما يستطيعه هو جذب انتباه الأم إليه بالصراخ الذى يعلن به أنه يعانى جوعاً أو ألماً ، أو بصيحات الغضب التى تندو عنه عندما لا تستجيب أمه لصراخه على الفور . وعند ما تتقدم به السن قليلا فإنه يصبح قادراً على التعبير بالألفاظ ، أو بأنواع أخرى من السلوك ، عن هذه العلاقة الوطيدة القائمة بينه و بين أمه ، والتى يريد استمرارها و بقاءها . ولهذا نسمع بعض الصغار القادرين على الكلام يعبرون عن ابتهاجهم بتغيب الأب ، فإن ذلك يتيح لهم الاستئثار بعناية الأم ، أو يصرحون برغبتهم فى الزواج من أمهاتهم عند ما يبلغون مبلغ الرجال ، أو يتحدثون عن إبعاد آبائهم عن البيت .

أضف إلى ذلك أن هذا الطفل النامى يبدأ فى اكتشاف مصادر أخرى للذة فى جسمه ، وهى مصادر لا تتصل بالعلاقة القائمة بينه و بين أمه . فعملية التبرز ، أو التبول ، تولد عنده ضربا من اللذة ، لأن خروج البول والبراز يثير مناطق الشهوة التناسلية ، كما يقضى على حدة التوتر الذى يضايقه ، فهو لذلك يولد اللذة ، و يفضى إلى الراحة .

ومن اليسير على من يلاحظ الأطفال أن يشعر بوجود اللذة البريئة التى يشتقونها من هذه العمليات ، فإن هذه اللذة خلو من كل شعور بالخجل ، ولذلك لا يتردد الأطفال فى ممارسة هذه العمليات علنا ، بل إنهم قد يجذبون الأنظار إليهم أثناء أدائها ، و يتحدثون عنها فى غير ما حرج ، وقد يدعون أصدقاؤهم

مشاهدتهم وهم يتبرزون ، ويرون فى ذلك موضعاً للتفاخر ، ولذلك نجد أن عبارة مثل : « أنظر ماذا فعلت ! » ، أو : « أليس هذا كثيرا » ، من عبارات الأطفال الشائعة المألوفة . ولا يظهر عليهم الحرج أو الخجل إلا عندما يدركون أن الكبار يحسون ذلك ، وعندما يصر آباؤهم على ضرورة أداء هذه العمليات فى مكان خاص ، وعدم الخوض فى الحديث عنها .

كذلك يكتشف الصغار ، بنين و بنات على السواء ، بطرق مختلفة ، أن لمس أعضائهم التناسلية يفضى إلى اللذة ، فإن هذه الأعضاء ، على الرغم من عدم اكتمال نموها ، شديدة الحساسية . ويبدو أن تلك مرحلة طبيعية يمر بها الصغار فى طفولتهم وغلومتهم المبكرة ، وأنها سرعان ما تنقضى ، ويعقبها النسيان التام .

ومسألة الجنسية الطفلية [1] ، هذه على أكبر جانب من الأهمية ، ولم يكشف عنها إلا منذ وقت قريب ، وذلك بفضل جهود (فرويد) وأنصار مدرسته . وأهم ما يهمنا من تعاليم هذه المدرسة أن الغريزة الجنسية لا تظهر فجأة عند المراهقة ، بل إنها موجودة منذ سنوات المهد ، وتعبر عن نفسها منذ سنوات الحياة الأولى . ولكن عدم اكتمال نمو الأعضاء التناسلية وقتئذ يجعل إشباعها يتخذ صوراً طفلية ، تختلف عن صور الإشباع التى نعرفها عند الكبار .

---

(1) Infantile Sexuality

ويشتق الطفل العناصر التى تتكون منها فكرته عن نفسه من علاقته المبكرة بأمه ومن الاتجاهات النفسية التى تتولد عنها . وعندما تنمو قدرته على التفكير والكلام يصبح في وسعه التعبير عن هذه الفكرة . ويتخذ هذا التعبير صورة قصة تدور حول مخلوق صغير باسل ، يقوم بأعمال تدل على الذكاء والجرأة ، ويتغلب على خصوم أشداء من الحيوان والبشر ، حتى يعثر على كنز ثمين (أو على ما يقوم مقامه) ، وتلك هى أسطورة البطل .

ولقد كانت أسطورة البطل منذ القدم موضوعاً لمعظم الخرافات الشعبية والقصص الخيالية التى تبعث البهجة إلى نفوس الصغار الناميين ، واتخذت محوراً للقصص التي تكتب لتسلية الأطفال . كما أنها كانت الفكرة المحورية فى عدد من القصص المسلسلة التى تنشر فى صور ذات ألوان زاهية براقة فى بعض المجلات الأمريكية المصورة (وهذا النوع المصور من القصص يعتمد فى فهمه على المصور لا على الكتابة) ، وهى مجلات غزت كثيراً من بلاد العالم .

فنجد فى القصة الإنجليزية أن البطل (سان جورج) يصارع التنين الهائل الذى روّع البلاد ، ويصرعه ، منقذاً بذلك ابنة الملك الجميلة من براثنه . أما فى القصة اليهودية فنرى البطل (داود) يخرج إلى العملاق الفلسطينى (جولياث) ، مسلحاً بمقلاعه ، فيتغلب عليه ويقتله ، بعد أن ظل هذا العملاق مبعثاً للرعب فى نفوس الجيوش اليهودية زمناً طويلا .

كذلك نقرأ فى الأسطورة اليونانية أن البطل (يوليسس) ، الذى جمع الدهاء إلى الجرأة ، يحطم العملاق (بوليفيموس) وينقذ رفاقه من شروره . ونقرأ فى قصة (جاك وعود النبات) كيف أن البطل الصغير (جاك) يتسلق فى جرأة متناهية بيت المارد ويقضى عليه .

إن بعض هذه القصص لا يقوم على حقائق ، فإن أسلوبها يتطلب انتقاء عناصر معينة ، وصوغها بشكل خاص ، وحذف بعض الأشياء ، والمغالاة فى البعض الآخر ، حتى تصبح القصة فى النهاية مسايرة للطراز السائد . ويستمع الطفل بالقصة لأنه يرى نفسه فى صورة البطل ، أو بتعبير سيكلوجى ، أنه « يخلع » البطل على نفسه . وهو إذ يستغرق فى قراءة القصة ينسى الزمان الذى يمر من حوله ، والمكان الذى يعيش فيه ، فيصبح هو سان جورج ، أو داود ، أو يوليسس ، أو جان دارك ، أو صلاح الدين . وهذا أمر سهل بالنسبة إليه ، لأن القصة التى يقرؤها هى نفس القصة التى يرددها عن نفسه ، وعلى مسمع من نفسه ، طيلة حياته . فهو البطل ، والموقف الذى تصفه القصة هو موقف الطفولة الذى كان هذا الصغير الضعيف يشتهى فيه التغلب على أبيه وامتلاك أمه . وعندما تقدمت به السن وبدأ فى التفكير عن نفسه بلفظ « أنا » ، فإنه إنما غدا يتحدث عن « أنا » (أى ذات) قد اصطبغت بلون صورة البطل .

وتعبر أسطورة البطل فى نظر الطفل ، لا عن عمل ، بل عن رغبة . فهى تعويض عن حرمان ، لأن الأب شخص قوى حكيم ، والطفل يرغب

فى أن يكون أشد منه قوة وأوفر حكمة ، فيهزم عملاق الأسطورة بما أوتيه من القوة الموفورة ، والحكمة السامية . (فشمشون) كان أحكم أهل فلسطين جميعاً ، ولذلك استطاع أن يحل اللغز الذى وضعوه له ، بينما لم يستطيعوا هم أن يحلوا اللغز الذى وضعه لهم . كذلك يحل (أوديب) لغز أبى الهول ، ذلك اللغز الذى حير سواه ، وعندئذ يختفى الوحش البغيض بعد أن تندو عنه صرخة مروعة . و بالمثل يفحم عيسى الطفل أئمة أحبار اليهود فى نواحى العلم التى أتقنوها . ومن اليسير الإسهاب فى ذكر الكثير من هذه القصص .

فأسطورة البطل إذن إنما هى نتيجة لشعور الطفل بقصوره ونقصه ، وهى القصة التي يسردها على نفسه كنوع من التعويض . وقد ينزوى بنفسه ، قدر ما يسعه ذلك ، عن العالم الخارجى وما يحفل به من حقائق قاسية تناقض رغائبه ، فينكر الحقيقة ، و يعيش فى عالم من الأحلام ، أو قد يحاول أن يمثل فى لعبه ما يتخيل أن البطل يقوم به من فعال . و بذلك يكون فى مقدوره أن يوفق بين حياته الخيالية البسيطة ، و بين حياة الواقع ذاتها . و يتعلم الطفل عن طريق هذا النشاط أن يعرف نفسه ، وأن يتدرب على العمل ، كما يصل إلى بعض المعلومات عن كيانه الجسمى ، وحدود قدراته ؛ وربما اكتشف فى أى الاتجاهات ، و بأى الصور ، يستطيع أن يترجم الأسطورة إلى لغة الحقيقة . وهل عليه أن يتغلب على العالم بأعمال الجرأة والإقدام ، أو بالقوة أو الدهاء ، أو بالعمل المضنى ؟ وما الفعال التي

يتخيل نفسه قائماً بها ؟ وما النتائج التى يتوقعها من ورائها ؟

من كل ذلك نصل إلى نقطة هامة فى المشكلة التى نتناولها بالبحث . فالغلام الصغير يريد أن يكون بطلا ، ولكن ما البطل ؟ تعرف معاجم اللغة الإنجليزية البطل بأنه :

« رجل يمتاز بالشجاعة الفائقة ؛ شخص جليل الشأن ؛ الشخصية الرئيسية فى السيرة أو القصة ؛ (والأصل فيه) رجل ذو قوة خارقة ، أو نصف إله . »

وأحلام اليقظة التى تحدث للأطفال فى سن الحادية عشرة تصور الغلام فى صورة شخص لا ينطبق عليه تعريف واحد من هذه التعاريف ، بل تنطبق عليه جميعاً . فهو ذو قدرات خارقة ، يقوم بتحيل تحير الرجال العاديين جميعاً ، وتجعل جماهير المشاهدين يصفقون له إعجاباً وإكباراً ، كما لو كان جليل الشأن حقيقة . ويكشف تحليل هذه الضرب من أحلام اليقظة على أنها قصص خيالية يكمن وراءها تاريخ حياة الطفل الشخصية ، فهو الذى يقوم بالدور الرئيسى فيها ؛ وقد يظهر فى القصة كما لو كان مندفعاً نحو بناء قد شب فيه حريق مروع ، جعل المشاهدين يحجمون عن التقدم إليه ، ولكن البطل الصغير يشق طريقه وسط هذا الجمع الحاشد الوجل ، ويتسلق السلم المتداعى ، ثم يدخل غرفة فى الطابق العلوى قد حبست النيران فيها رجلا مسنا ، أو سيدة ضعيفة ، أو فتاة ، ويصرخ سجين النيران فى يأس طالباً العون والنجاة ، فيحمله البطل ، وينزل به إلى الشارع حيث تستقبله

جموع الواقفين بالتهليل والإكبار . هذا هو حلم اليقظة المألوف ، وهو إلى جانب ذلك من الحوادث الشائعة فى القصص التى تكتب للأطفال فى هذه السن ، كما أنه الصورة التى تسجل بها بعض الصحف المنتشرة حوادث الحرائق ، ولو أنه ليس أسلوب الصحف الراقية . أضف إلى ذلك أنه يمثل قصة البطولة التى يحتمل أن تحدث للفرد فى حياته الواقعية ، وهذا الاحتمال الأخير لا ينبغى أن نغفل عنه .

وما يثاب به الطفل على هذه البطولة هو فى أغلب الأوقات الإعجاب صادراً عن الجمع الذى يشاهد ما فعله . واعتراف الناس بقدر الغلام يذكرنا بما سبق قوله عن تصفيق الإعجاب الذى كان يقابل به الفتى عند نجاحه فى اختبارات التدشين البدائية . وهكذا يستطيع الطفل بمهارته وجسارته ، أو بذكائه وقوته البدنية ، أن يتغلب فى الخيال على ما فى طفولته من قدرات محدودة ونقائص ، ومن ثم يصبح من الضرورى أن يعامله الكبار على أنه واحد منهم على الأقل .

ولا تحتاج أسطورة البطل بالصورة التى بسطناها إلا إلى القليل من التحوير لتصبح أسطورة عاطفية ، إذ يكفى أن نستبدل بتصفيق الجمع الحاشد يد سيدة جميلة حتى تغدو القصة تعبيراً عن رغبات المراهق . وهكذا نرى داود يتناول يد (ساؤول) كمكافأة له على بسالته التى اكتسب بها من قبل إعجاب الجند والشعب على السواء . ونصادف فى مثل هذه القصص على اختلاف صورها ألواناً من البطولة ، الغرض منها هو الظفر

بإعجاب شابة حسناء ، وكذلك رضى أولياء أمورها الذين فى وسعهم الموافقة على زواجها . فالشاب في قبائل غينا الجديدة البدائية ليس عليه أن يثبت رجولته فى اختبارات التدشين فحسب ، بل لا بد له أيضاً أن يجمع بعد ذلك عدداً من رءوس من قتلهم بنفسه ، فيعلقها على باب دار الفتاة التى ينشد زواجها ، حتى يدلل بذلك على صلاحيته لهذا الزواج . تلك هى أسطورة البطل العاطفى فى ناحيتها العملية ... « لا يستحق الحظوة بقلب الحسناء إلا الباسل المقدام » .

لقد أصبح من الواضح الآن أن المراهقة ليست ، كما كان يعتقد الأستاذ « ستانلى هول » ، فترة ظهور الخيال ، بل إنها توجه الأخيلة المبكرة نحو مسالك جديدة ، وتنسقها أيضاً . ونجد أن النمو القوى فى القدرة على النقد ، واتساع دائرة الخبرة ، من شأنهما أن يعينا المراهق على نسج أسطورته حول نفسه بشكل أقل إسرافاً وسخفاً من ذى قبل ، كما يجعلها تبدو ، عندما يتحدث عنها ، كما لو كانت أسلوباً معقولا من أساليب الحياة ، إذ نراه يقول : « سأفعل كذا ... فإن ذلك يؤهلنى لأن أتقلد منصباً أتقاضى منه راتباً ضخما يساعدنى على الزواج » . ولكن هذه العبارات الجامدة تخفى وراءها كثيراً من التفاصيل التى حذفت عن قصد نتيجة للذكاء النقدى ، أو كبتت لتعارضها مع عناصر الشخصية الأخرى . وهكذا تختفى ألوان القصة البراقة ، وحوادث الحريق ، من مثل هذه الخطة المتزنة . ومع ذلك تظل تؤدى معنى التأكيد الآتى : « سوف أتغلب على

الصعاب ، وأكتسب لنفسى بسالتى وإقدامى مركزاً ورفيقاً فى الحياة » ، أو بعبارة أخرى : « سأصبح بطلا » .

ويتوقف المعنى الصحيح لكلمة « بطل » فى نظر الطفل على درجة نموه من ناحية ، وبيئته من ناحية أخرى ؛ فقد يكون البطل ملاكا اشتهر أمره وقتئذ ، أو طياراً باسلا مثل (الكولونيل لندبرج) الذى غداً عقب عبوره المحيط الأطلسى بطائرته الصغيرة بطلا عظيما فى نظر آلاف الأطفال الأمريكيين ، كما أنه قد يكون كوكباً سينمائياً يمثل أدوار رعاة البقر ، ويحيا على الشاشة البيضاء تلك الحياة التى يحلم الطفل بأنه يحياها . وإذا انتقلنا إلى مستوى ثقافى أرقى من ذلك ، وجدنا أن البطل قد يكون مستكشفاً يعرض نفسه لشتى المخاطر فى سبيل ارتياد بلاد جديدة لم تطأها قدم أحد من قبله ، أو عالماً جليل القدر — وإن كان يبدو أن قصة البطل تتطلب فى هذه الحالة أن تكون مخترعات هذا العالم مما يستخدم فى الغلبة على الأفراد أو الجماعات المعادية أو الشريرة . وقد تتغير صورة هذا البطل المثالى عدة مرات أثناء نمو الطفل . فهذا هتلر مثلا يذكر لنا فى كتاب « كفاحى » أنه كان فى صغره يرى فى القس ذى المسوح القاتمة مثله الأعلى الذى يصبو إليه ، أما بعد ذلك فقد حل الفنان محل القس ، ثم رئيس الحزب ، وأخيراً زعيم الأمة . كذلك قد تظل صورة البطل المثالى ملازمة للفرد ، فتؤثر فى أسلوب حياته وعمله . فإذا اتخذت طفلة من معلمتها مثلا أعلى لها ، فإنها قد تكرس كل جهودها لعلمها ودراستها حتى تغدو فى النهاية معلمة قد تبذ

الأنموذج الذى سارت على هداه .

وقد انتشرت منذ القرن الماضى صورة جديدة لأسطورة البطل ، هى القصة البوليسية . ولا يتحتم فى هذا النوع من القصص أن يكون البطل شجاعاً باسلا ، أو قوى الجسم مفتول العضلات ، فإن مواطن قوته تتركز فى مهارته في الاستنباط ، واستخلاص النتائج الذى يغفل عنها الآخرون ، متوصلا بذلك إلى الكشف عن مرتكبى الجرائم ، وتقديمهم للعدالة . ولقد أدرك مبتكر هذه الشخصية ، وهو « إدجر ألان پو » ، العلاقة المكينة بينها وبين شخصية (أوديب) فى الأسطورة اليونانية ، فسجلها فى قصته المعروفة باسم « أنت الرجل » .

وتبدو القصة البوليسية لأول وهلة بعيدة الشبه بأسطورة البطل إلى درجة كبيرة ؛ ولكن التأمل فيها يكشف عن عناصر مشتركة بينهما . فإن « جابريو » ، و « پو » ، و « كونان دويل » ، « دوروثى سايرز » ، و« أجاثا كريستى » ، وغيرهم من مشاهير كتاب هذه القصص المشهورين ، يقدمون لنا صوراً مختلفة لهذا الرجل الخاص الذى يبدو فى بادىء الأمر عاجزاً عن استقصاء الجرائم ، كما بدا داود لقومه غير قادر على قتل جولياث ، أو سان چورج على صرع التنين . وبالمثل نجد فى قصص الأبطال أن بطلا يدل ظاهره على تفاهة شأنه يستطيع أن ينجح فى الكشف عن المجهول الذى أخفق سواه من الأقوياء الممتازين فى سبر أغواره ، ونجد فى القصة البوليسية أن ضابط المباحث الرسمى ، وخبراء سكتلنديارد الانجليزية ، أو

دائرة الأمن الفرنسية ، يفشلون فى حل معميات الجريمة ، حتى يتدخل المحقق الخاص ، ويستعرض أمامهم فنون الملاحظة والاستنتاج . ولذلك يلمس الطفل فى هذه القصص ، على اختلاف صورها ، ما يماثل أسطورة البطولة التى حاكها حول شخصه .

ويدلل المحقق الخاص على أنه عضو هام فى المجتمع عن طريق اعتراضه سبيل المجرم الخارج على القانون ، ونزع القناع عن وجهه ، وتسليمه إلى العدالة لتقتص منه . فهو يدافع عن القانون الذى يرمز إلى إرادة المجتمع ، ضد الشخص الذى خالفه وانتهك حرمته . ولهذا نستطيع ، إذا شئنا ، أن ننظر إلى حل لغز الجريمة على أنه اختبار تدشين .

كذلك يكون المحقق الخاص فى معظم الحالات شخصاً غريب الأطوار فكل من (أوجست دوبان) فى قصص (پو) ، و (شرلوك هولمز) فى روايات (كونان دويل) ، رجل يؤثر حياة العزلة ، ويعيش بين كتبه وبحوثه فى غرفة هادئة . كما أن كثيراً من أبطال القصص البوليسية يكونون ممن لا يميلون إلى الاندماج فى حياة المجتمع ، وقليل منهم من يبدى اهتماماً بالحياة الاجتماعية المألوفة . ونجد بعض القصص البوليسية الأمريكية الحديثة تصورهم على هيئة « رجال يقومون باستقصاء حقيقة المسائل الخاصة »، يكرههم رجال الشرطة الرسميون ، ويشكّون فى حقيقة مراميهم ، كما أنهم لا يلقون ترحيباً فى دوائر المجتمع ، ويمقتهم المجرمون ، أى أن طبيعة عملهم ، بعبارة موجزة ، قد أفضت إلى عزلهم عن الحياة ، العادية

للجماعة التى يعيشون فيها . وهم يحملون لواء البطولة ، ولكنهم قد لا يحظون بإكبار الجماعة ، على الرغم من تفوقهم على من وضعتهم الجماعة موضع التقدير والاحترام .

ويلجأ كثير من الكتاب إلى أساليب خاصة يبرزون بها قدر البطل فى القصة . فالشك يتجه منذ البداية نحو أفراد معينين هم الذين يلقى عليهم رجال الشرطة العاديين القبض فى معظم الأوقات . كما أن بعض الأشخاص من ذوى المكانة والرأى السديد يعبرون عن يقينهم بأن مرتكب الجريمة شخص معين ، ويلحون على رجال الشرطة فى القبض عليه . ولكن المحقق الخاص يثبت للجميع فى النهاية أن الجريمة قد ارتكبت بواسطة شخص لم يتطرق إليه اتهام أحد سواه . وهو دائماً مصيب فى استنتاجه ، أما الباقون فعلى خطأ دائما .

ولقد أشار (توماس كارليل) فى محاضرة له عن « الأبطال وعبادتهم » إلى أننا نجد فى مستويات النمو الثقافى المختلفة أن الرجل العظيم ، أو البطل ، يظهر على صور شتى ، فقد يكون إلهاً ، أو نبياً ، أو جندياً ، أو من رجالات الأدب . وفى حلم البطولة الذى ينسجه الطفل حول نفسه يكون البطل أحد رجال الشرطة ، أو رجال الحريق ، أو طبيباً ، أو معلماً ، أو من رعاة البقر ، أو جندياً ، أو ملكا ، أو طياراً ، أو سائق سيارة ، أو عالماً ، أو قساً ، أو نافخ بوق . وقد يكون البطل قوياً باسلا ، أو على جانب من الذكاء ، ولكن لا بد له إلى جانب ذلك من أن ينجح من حيث أخفق

الزعيم المعترف به فى الأسطورة فهو ليس شجاعاً أو ذكياً فحسب ، بل إنه أشجع الجميع وأشدهم ذكاء ، وقادر على التدليل على قدرته الشاملة ، أو معرفته المحيطة بكل شيء ، أو كليهما معا ، وهى الصفات التى كان يراها فى أبيه أثناء طفولته . وهكذا تستمر الأسطورة فى إظهار الاعتراف العام بتلك الصفات .

وكلما ازداد فهمنا لمصادر هذه القصص وتطورها قلّ ميلنا إلى اعتبارها مجرد هراء وهذيان . فهى على الأقل تصر على أنه لا بد للاعتراف بالشخص كعضو هام فى الجماعة من أن يدلل على أنه يمتاز بقسط وافر من المزايا التى تحظى بإعجاب المجتمع وتقديره . إذ نراها تعبر عن الرغبة فى إظهار البسالة ، والمعرفة الواسعة ، والتفوق على الأقران . كما تعبر عن الرغبة فى أن يُبذّ البطل أولئك الذين اشتهروا بالحكمة والشجاعة . ولو ارتبطت مثل هذه الرغبات بالنشاط العملى المنتج لأصبحت ذات قيمة عظيمة حقا ، ولكن يخشى منها أن تغرى الطفل بالإنسحاب من عالم الحقيقة ، فلا يبذل أى جهد فى سبيل التقدم ، بل يكتفى بما يتيحه له حلم يقظته من إشباع ، وذلك عندما تثبط من همته تلك الهوة الواسعة التى تفصل بين حلم اليقظة وقدراته الراهنة . وقد يزيد الآباء فى سعة تلك الهوة ومدى ذلك التثبيط بتأكيدهم المتصل للطفل أن عالم الواقع مختلف أشد الاختلاف عن عالم أحلام اليقظة ، وبالإلحاح فى مطالبته بصرف كل جهوده ناحية دروسه التى تبدو له عديمة الارتباط بمطامعه وآماله . وكلما ازداد تأكيد الآباء فى إضافة

خصائص إلى العالم الواقعى ، اشتد ميل الطفل إلى الانسحاب منه ، وقوى يأسه من محاولة النضال .

فحلم يقظة الطفل عن نفسه ، وهو ليس أكثر من نسخة مختلفة من أسطورة البطل ، يتضمن ما نطلق عليه أحياناً اسم « الذات المثلى » ، وهى الذات التى تتبدى للفرد عن نفسه ، والتى يرغب دوماً فى إثباتها للآخرين عن طريق نجاحه فى الحياة .

وعندما نصل إلى ما أسميناه بالموقف العاطفى فإننا نصادف مرة أخرى ضرورة التدليل على هذه الذات لشخص آخر . فنقرأ فى قصة « تاجر البندقية » لشكسبير العظيم كيف أن رجلين من ذوى المكانة الرفيعة ، والذكر النابه ، هما أمير مراكش وأمير أراجون ، كانا يتنازعان التقرب إلى (پورشيا) الحسناء . ولكن كل ما أدى إلى رفعة مكانتهما ونباهة ذكرهما عند أبناء وطنهما لا يهم كثيرا ، بل إن ما يهم هو أنه كان لا بد لهما من أن يجتازا بنجاح امتحاناً جديداً ، ولكنهما يفشلان فيه . أما الرجل المجهول الذى استأثر بقلب (پورشيا) فهو الشخص الذى كان دوماً على استعداد لأن « يجازف بنفسه ويضحى فى سبيل ذلك بكل مرتخص وغال لديه » . كذلك نقرأ فى قصص أخرى كثيرة كيف أن طالب الزواج ، وهو عادة شخص رفيع المقام ، يتخفى فى زى مغن ، أو شاعر ، أو شحاذ ، أو خادم ، ولا يكشف عن مميزاته الشخصية ، أى ذاته الحقيقية التى تختلف عن الذات التى عرفها الناس ، إلا بعد مدة من الزمن ، وذلك

عن طريق ما يبذله من خدمات ، وما يظهره من إخلاص وولاء . وهكذا نقرأ كيف كشف (فضل الدين) الشاعر المغمور عن نفسه أمام (لالا روك) أثناء رحلتهما إلى كشمير ، حيث عرفت (لا لا) لأول مرة أن هذا الرجل الذى وقعت فى هواه خلال الرحلة ، إنما هو الأمير الذى ستتزوجه .

وتثير مسألة الزواج كثيراً من المشكلات ، فإن القواعد والقوانين المختلفة المتعلقة بها تدل على مدى ما كان لنتائجها من تعقيد فى نظر الجماعات المختلفة فى كل مكان . ولكن على الرغم من شدة اختلاف هذه القواعد والقوانين باختلاف المجتمعات فإنها توحى بأن طبيعة المشكلة كانت واحدة فى سائر البلاد . غير أن بعض الظروف تجعل نواحى معينة منها أشد أهمية من سائر النواحى .

فنجد فى المجتمع الساذج البسيط أن الشاب الذى ينشد الزواج من إحدى الفتيات إنما يطلب قطع علاقاتها الاجتماعية بسائر أفراد أسرتها ، أو وضع تلك العلائق فى مرتبة ثانوية بالنسبة إلى علاقتها به . ولذلك كان لا بد أن يتوقع معارضة من أبيها وأمها وإخوتها وأخواتها ، لأنهم لن يتنازلوا بسهولة عن حقوقهم حيالها . فالفتاة فى المجتمعات البدائية ، وغير البدائية ، تعتبر من الممتلكات ذات القيمة ، فهى تساعد أباها فى زراعة حقله ، والعناية بماشيته ، كما تساهم بنصيب وافر فى الأعمال المنزلية ، إذ تعين أمها على الطهى ، وصنع الملابس ، ورعاية الصغار . وإذا كانت الجماعة

تعيش على القنص فإنها تقوم بطهى الحيوانات المصطادة ، و إعداد الملابس من جلودها وفرائها . أما فى المجتمعات الحديثة فإن الفتاة تقوم بنصيب فى أعمال البيت ، كما أنها قد تستطيع أداء عمل يدرّ عليها أجرا . و ينتظر منها دائماً أن تعمل على رفع بعض أعباء المنزل عن عاتق أم مسنة ، وأن تقوم بتمريض أبويها إذا ما أصابهما المرض . وهكذا نجد فى جميع المجتمعات أن الفتى الراغب فى الزواج يلقى معارضة من الذين يملكون حقوقاً معترفا بها على فتاته .

وتحدد كثير من البلاد سن « الرشد » ، وهى السن التى تعتبر الفتاة عندها حرة التصرف فى نفسها ، فتتزوج دون موافقة أبويها إذا شاءت ، إذ أن بلوغها هذه السن يحرم أبويها قانوناً من أى حق لهما عليها . ولكنهما يستطيعان مع ذلك إقناعها بأن عليها حيالهما واجباً أدبياً ، فلا ينبغى لها أن تتصرف دون موافقتهما ، كما يذكرانها بما أسبغاه عليها من حدب ورعاية فى صغرها وحداثتها ، مما يجعل فى عنقها نحوهما بعض الالتزامات التى تستوجب أن تظل على ولائها وخضوعها لهما ما داما على قيد الحياة . ولكن من الواضح أن هذه الأمور ليست من العدل فى شىء ، لأنها فى الحقيقة ليست فى صالح المجتمع ، إذ ينبغى على الشابة فيه ألا تضحى بهذه السنوات الملائمة لإنسال الأطفال الأصحاء من أجل خدمة جيل من الكهول . ولكن العاطفة ، لا العقل ، هى التي تستجيب دوماً لهذا النداء . وهكذا يواجه الشبان والشابات ناحية معقدة من نواحى المراهقة

عندما يجدون أن رغبتهم المكبوتة فى الزواج تتعارض مع معايير « الواجب » التى ألفوا الاهتداء بها فى سلوكهم .

كذلك لا بد أن نذكر أن الشاب قد يحس ميلا إلى فتاة قد تكون فى نفس الوقت مثار إعجاب غيره من الشبان ، أو قد يحدث العكس ، وهكذا قد يفضى اختيار الزوج إلى ألوان شتى من الغيرة والمشاحنة بين أفراد الجماعة ، مما قد ينجم عن اتساعه ضعف فى تماسك الجماعة . وقليل من المجتمعات البدائية لم يكن فى وسعه أن يصبر على مثل هذا التنازع ، فإما أن تنظم الأمور بشكل يحول دون حدوثه ، و إما أن يُحسم على الفور حال وقوعه . ومن ثم ظهرت طائفة من القواعد والقوانين والعادات الاجتماعية التى تهدف إلى تنظيم الزواج ، وتوقيع العقوبات المختلفة على من يخرج عليها ، ومن هذه العقوبات الغرامة والنفى وأحياناً الموت . وتفرد جميع الكتب التى تبحث فى العلوم الإنسانية وحياة الشعوب فصولا مسهبة لتفصيل قوانين الزواج وعاداته .

و يحدث فى بعض الأحيان أن ترغم التقاليد الشاب على أخذ عروسه قسراً من قبيلة أخرى ، فيغير فى جماعة من رفاقه المسلحين على أرض القبيلة المعادية حيث يستخدم الحيلة أو العنف فى اختطاف فتاة ، بموافقتها أو رغماً عنها . وفى حالات أخرى يكون عليه أن يترك أمر مفاوضة ذويها فى أيدى كبار أسرته ، إذ يتقدم هؤلاء إلى كبار أسرة الفتاة ، و يحاولون الاتفاق معهم على زواجها من فتاهم . وتحرم القوانين فى بعض الجماعات

زواج المرأة من أفراد طائفة معينة من الطوائف التى تنقسم إليها القبيلة ، أو تحرم زواج الرجل بامرأة تختلف عنه فى السن ، مما يجعل دائرة اختيار الزوجة محدودة ، فيكون عليه أن يحصر اختياره فى نفر معين من النساء ، أو يفقد الأمل فى العثور على الزوجة المنشودة . ولو حاول أن يتزوج بامرأة حرمتها عليه القوانين فإنه قد يقضي عليه هو وزوجه ، اللهم إلا إذا استطاع أن يفر من أراضى القبيلة ، وأن يلجأ إلى مكان آخر .

وكثيراً ما تناولت القصص العاطفية المألوفة حياة العاشقين اللذين حالت القوانين أو التقاليد الاجتماعية دون زواجهما . فروميو وجولييت ينحدران من أسرتين كبيرتين استحكم بينهما العداء ، ورفض رؤساؤهما الموافقة على أى اتحاد بين أبنائهما . فلم يجد العاشقان أمامهما ، بعد عقد زواجهما سراً ، وقضاء وقت قصير معا ، سوى الاتحاد الأبدى بالموت . وهذه فكرة شائعة فى المآسى العاطفية ... كما قد يحدث أن عاشقاً يرغب فى الزواج من شخص معين يجد نفسه مقيداً بزواج سابق لا يخلصه من قيوده إلا الموت ، فيحاول أحد العاشقين أو كلاهما أن يقضى على حياة الزوج الآخر (أو الزوجة) ، على أمل أن يتزوج ممن يحب ، أو قد يفصم عرى الزواج القديم بالانتحار . وفكرة انتحار العشاق الذين تقف الحواجز الاجتماعية حجر عثرة فى سبيل زواجهما من الصور المألوفة أيضاً فى ميدان قصص المآسى العاطفية .

وتوجد إلى جانب ذلك قصص كثيرة أخرى تدور حول وصول

الشخص إلى أسمى المناصب بجهوده ، حتى يصبح فى وسعه أن يحطم هـذه العوائق التى تعترض سبيله ، ويحظى بموافقة معارضيه . ومن أمثلة ذلك أن (كوينتين ماتسيس) إمام صانعى الصلب ، الذى يقوم مصنعه خارج كاتدرائية أنتورب ، قد عمل بضع سنوات ليصبح من الفنانين ، لأن المرأة التى أحبها كانت ابنة مصور رفض أن يزوج ابنته من رجل يعتبر فى نظره مجرد صانع عادى . كذلك استطاع (عطيل) ، على الرغم من عنصره ، أن يجعل نجمه يتألق فى سماء الحرب والبطولة ، حتى وصل إلى مركز جعله فى نظر (الدوج) وأعضـــاء مجلس شيوخ البندقية صالحاً للزواج من (ديدمونا) ، وجعل معارضة أبيها مثار الزراية والسخرية .

فالموقف إذن كما يبـدو فى عين الشاب يتلخص فى أنه يدرك أن ما يحول دون إشباع رغبته هو القوانين الاجتماعية التى لابد له من الخضوع لها . وأن الاذعان لهذه القوانين شرط أساسى لإتمام جميع أنواع الزواج . كذلك عليه أن يحصل على موافقة أولياء أمر الزوجة ، ولابد له ، فى بعض المجتمعات ، أن يظفر أيضاً بموافقة الزوجة نفسها .

ولهذا يجد نفسه أمام مشكلة ذات ثلاثة أوجه . إذ عليـه أن يختار رفيقاً يميل إليه ، وأن يدلل على كفايته وحسن تقديره فى نظر أسرة هذا الرفيق ، ثم لابد له من أن يخضع بعـد ذلك لحكم القوانين التى وضعها المجتمع .

ويحسن أن يؤجل مناقشة الوجه الأول للمشكلة مؤقتـاً ، وأن نبدأ

يبحث الوجهين الثاني والثالث لمالها من علاقة محدَّدة بأسطورة البطل التي نتحدث عنها ، والتي ، كما ذكرنا ، تدور حول حميد الصفات وجلائل الأعمال التي يدلل بها البطل على نباهة شأنه ، والتي تجعله مقبولاً في عين المجتمع . والأسطورة مصطبغة بالأثرة أو الأنانية ، إذ يكون تفكير البطل فيها منصباً على نفسه كفرد قائم بذاته ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة ينظر فيها إلى نفسه على أنه عضو في جماعة ، ولكنه في معظم الحالات يكون رئيس الفريق أو زعيم الجماعة .

وصفات الشجاعة ، والدهاء ، والجرأة ، والقوة ، والعلم ، التي تظهر في أحلام اليقظة ، تعمل جميعاً على السمو بشخصية الحالم ، فهي مرتبطة بحب السيطرة ، وتأكيد الذات ، والزهو ، والكبرْ ، والفحة . وهي تظهر أيضاً في الصور العاطفية للأسطورة ، ولكنها تقوم فيها بوظيفتين بدلا من وظيفة واحدة ، فهي تجعل الجماعة ترضى عن وجود البطل فيها ، كما تجعل البطل حبيباً إلى قلب المرأة ، وكبار رجال أسرتها ، ولكنها تكون في الوقت نفسه نوعاً من الهبة أو التضحية ، إذ يضع هذه الصفات تحت مطلق تصرفها ، أو يكرسها لخدمتها وحدها . فبدلا من أن ينميها لنفسه فقط ، ينميها من أجل فتاته أيضاً .

وهكذا نجد في أحلام اليقظة عند كثير من المراهقين ، وكذلك في القصص والمسرحيات وأفلام السينما المشتقة منها ، أن الشاب يصور فيها

— بشكل أشد وضوحاً مما يشعر به — ماهية التزاوج الحقيقية . وكثير من كتب المراهقين ، وجانب كبير من الدعاية التي توجه إليهم أيضاً ، تناقش أمر الزواج كأنه مجرد عملية فسيولوجية لا تزيد فى الأهمية عن أية عملية أخرى كذلك يخيل إلى البعض أن إدراك المراهق للماهية الفسيولوجية لهذه العملية ، وفهمه للغرض منها ، يكفى لعدم تفكيره فيها كثيراً ، و بذلك تصبح المشكلة قد صادفت حلها . ولكن يبدو لنا أن هذه النظرة خاطئة تماماً ، بل مؤذية أيضاً .

فالناحية الفسيولوجية فى الزواج ليست أكثر من ناحية واحدة ، لأن الزواج يرمى إلى إقامة علاقة وطيدة فريدة بين فردين من جنسين مختلفين . وكل من يلحظ التأثيرات الشديدة التي تظهر على الصغار عند ما يشاهدون العلاقات الجنسية بين الأفراد — تلك العلاقات التى تصورها المواقف الغرامية فى أفلام السينما — سوف يدرك مدى النفور والاشمئزاز الشديد الذى لابد للشخص العادى من التغلب عليه حتى تصبح عملية التزاوج ممكنة . ولهذا النفور مصادر عدة ، فإنه ينجم عن الخبرات المبكرة ، والتنشئة الأولى ، والخجل ، والحرج ، والخوف من الضعف ، وغيرها . و يتغلب الفرد عادة على هذا الاشمئزاز بإطالة فترة الخطو بة ، إذ يحاول خلالها أن يجتث جذوره من أعماق نفسه ، ومن نفس رفيقة أيضاً . فهى فترة التخلص المشترك من الأهواء ، واطراح المخاوف والشعور بالحرج ، و بنجاحها تنتهى

فترة التكتم والمواربة . فالاتصال الجنسى ليس سوى مظهر واحد — وهو مظهر لا يعتبر من الناحية الاجتماعية أهم المظاهر — لحياة مشتركة تقوم بين شخصين ، يتنازل كل منهما عن أنانيته ، ويندمج فى شخصية رفيقه . وهذا ما نعبر عنه بقولنا إن الزوجين قد أصبحا شخصاً واحداً .

ومما لا شك فيه أن قيام مثل هذه العلاقة بين شخصين ، يفضى إلى تكوين أسرة هانئة . ولهذا تصبح المؤسسات التى تعمل على نشر الزواج بين الشبان والفتيات فى نهاية مرحلة المراهقة على أكبر جانب من الأهمية الاجتماعية . فالزواج الناجح دليل صريح واضح على النضج ، وهو يختلف تمام الاختلاف عن الاتصالات الجنسية العرضية المضطربة التى لا تهدف إلى غير الحصول على الإشباع الفيسيولوجى والإثارة النفسية ، مما تدفع البيئة والتنشئة آلافاً من الشباب إلى السعى وراءه ، لعدم إدراكهم ما هو أكثر من ذلك أهمية وقيمة .

ولكن من الواضح أن تكرار الوسيلة لا يفضى إلى تكرار شدة الاستمتاع ، ولذلك فإن الاتصال الجنسى القائم على الرغبة فى الحصول على اللذة المثيرة قصير العمر . وتفضى مثل هذه الرغبة الحمقاء إلى تغيير الرفقاء بشكل مستمر ، وخيبة الأمل المتصلة . أما الدوام فلا يتوقف على المتعة التى تنتج عن عنصر واحد ، بل الإشباع الهادىء المتزن الذى تفضى إليه العناصر جميعاً . وبذلك تغدو الثقة المتبادلة ، والتعاون التام ، والحب الخالص

جزءاً من الحياة ، ومصدر متعة دائمة مقيمة . وهكذا تتوقف سعادة الأفراد واستقرار الحياة العائلية ، و إنجاب الأطفال الأصحاء و إعالتهم ، وصالح الأمة تتوقف جميعاً ، إلى درجة كبيرة ، على الزواج الصالح ، وليس على عبث « كبار العشاق » ومجونهم . فالزواج السعيد هو البحر الهادىء الذى تتدفق إليه جداول المراهقة المضطربة . و إن من واجب مؤسساتنا التعليمية أن تعنى بتوجيه هذه الجداول نحو ذلك المصبّ العظيم .